المحاضرة الرابعة: تاريخ الفكر اللساني في أوروبا إلى غاية القرن 19م:

مقدمة:

دخلت البلدان الأوروبية في سبا تعميق بعد انهيار روما دام عدة قرون، عدا ما كان يدور في مجالس الرهبان (الطبقة المثقفة آنذاك) من مناقشات، ومحاضرات كانت في الغالب الأعم تعليقا على ما قاله (دوناتو)-خاصة-في اللغة مع سوء فهم لمحتواه أحيانا، واستمرت أوروبا كذلك حتى نهاية القرن 16م؛ تاريخ انبعاث أوروبا من الناحية العلمية لأسباب أهمها:

1. الحروب الصليبية: التي أدت إلى احتكاك الغرب بالعرب والاطلاع على حضارتهم، وكذا ثراء تراثهم اللغوي أو الفلسفي.
2. الصدامات الحربية بين إسبانيا وصقلية، وما تبعها من رحلات في طلب العلم من عواصم الأندلس والمغرب العربي.
3. ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية: مما أدى إلى تسرب المفاهيم العربية، وكذا اليونانية إلى أذهان الأوروبيين، فاكتشفوا الفلسفة اليونانية ومذاهبها في علم اللسان خاصة "أرسطو" وما زاد عليه العرب من مفاهيم أعجب بها الأوروبيون، وقد كان تعليم اللاتينية عبارة عن تقليد أعمى للرومان خاصة دوناتو.

أولا/ مبادئ روجير بيكون(1214-1294):

ورغم ما قيل ويقال عن هذه الفترة إلا أنها عرفت –خاصة-القرن 13م ظهور مبادئ لسانية هامة قريبة مما أثبتته البحوث الحديثة ومنها:[[1]](#footnote-2)

1. مبدأ وحدة النحو: يقول روجير بيكون (Roger Bacon):" إن الغراماطيقي يحسب جوهر واحد في جميع اللغات، وإن كانت تتنوع تنوعا عرضيا."
2. تخصيص شيء معين بلفظ ما مرتبط بتصور الواضع لذلك الشيء.
3. ضرورة التقدير في النحو لتفسير الأبنية: مثل التحولات المتعلقة بالحذف، والتقديم والتأخير وغيرها.
4. دعا روجير بيكون إلى تأسيس المعرفة العلمية على التجربة والحس.

ثانيا/ أوروبا من ق 16م إلى ق18م(ظهور المعاجم والدراسات الابستيمولوجية):

على الرغم من وجود هذه المبادئ في تلك الفترة إلا أنها سرعان ما تدخل حيز النسيان، وتبقى الأمور على حالها إلى غاية القرن 16 حيث ظهرت دراسات في لغات غير أوروبية أهمها:[[2]](#footnote-3)

* معجم في إيطاليا في سبع لغات لصاحبه "R، Calepino" وعنوانه"Dictionarium" عام (1502).
* معجم "Mithridates" لأدلونغ (Adelung) عام (1555) طبع في زيوريخ.

واستمر البحث في اللغات الأجنبية في أوروبا في القرن 17م فظهرت معاجم تحتوي على مفردات من 400 لغة مثل المعجم الذي ألفه مزيجر وطبع في فرانكفورت عام 1603.

أما القرن 18م فظر فيه عالمان جليلان هما كوندياك(Condillac) (1714-1780)، وجيمس هاريس (1709-1780)، أمّا الأول فألف كتابا عنوانه" محاولة في أصل المعارف الإنسانية"

« Essais sur l’origine des connaissances humaines »عام (1754)

جاء فيه:" اللغات أدوات تستعمل لا للتعبير عما في النفس فقط بل لتحليل المعلومات الحسية التي تتأدى إلى مشاعرهم بواسطة الحواس"، أمّا هاريس فله كتاب "هرماس" فيه رجوع إلى الفكر اليوناني ونظرياته، وكان تعريفه للغة قريبا من تعريف سوسير لها يقول:" اللغة نظام Système من الأصوات المقطعة كأدلة، ورموز لأفكارنا، وبالأخص العامة، والكلية منها."

وهكذا فإن عمل هذين اللسانيين قريب جدا مما سيطرح فيما بعد عند دي سوسير خاصة ما تعلق منها ب: تعريفه "اللغة على أنها نظام من الأدلة اللسانية"[[3]](#footnote-4) كذا استعماله للمنهج الوصفي.

ثالثا/ الفيلولوجيا التاريخية والفيلولوجيا المقارنة: عرفت نهاية القرن 18م بداية القرن 19م ظهور الدراسات الفيلولوجيا التي قام بها الألمان للنصوص القديمة، وهم الذين وضعوا أسس الدراسة المقارنة التاريخية للغات، وبعجوا النحو المقارن، وفي هذا العصر تكلم البنويون عن العلاقة بين اللغة والجماعة الناطقة بها وفكرها، واكتشف العلماء صلات القرابة بين السنسكريتية واليونانية واللاتينية، قال وليام جيمس[[4]](#footnote-5)\* في تقريره أمام الجمعية الملكية الآسيوية البنغالية في عام (1786):" اللغة السنسكريتية مهما يكن قدمها، لغة ذات تركيب عجيب، وهي أكثر كملا من اليونانية، وأغزر إنتاجا من اللاتينية، وأكثر منهما تهذيبا بشكل رائع، وهي فوق ذلك على قرابة بكل منهما في جذور الأفعال وصور القواعد معا، قرابة أقوى من أن تكون نتاجا للمصادفة، وهي قرابة قوية في الواقع لدرجة أن أي عالم في الفيلولوجيا لا يمكنه أن يفحص اللغات الثلاث جميعا، دون أن يعتقد أنها نشأت من أصل معين مشترك ربما لم يعد موجودا."[[5]](#footnote-6)

ويعد اكتشاف صلات القرابة بين السنسكريتية، واليونانية، واللاتينية، أهم ما ميّز نهاية القرن 18م بداية القرن 19م حيث ظهرت الدراسات المقارنة والتاريخية للغات مع فرانز بوب، وياكوب جريم، وراسموس راسك، وهي " دراسات ينعكس فيها روح عصر الرومانسية مع عودة الوعي بتاريخ الشعوب وتاريخها اللغوي."[[6]](#footnote-7)

وكان قد ظهر في هذه الفترة عالم جليل، عارف بأسرار العربية هو" سلفستر دي ساسي"، كان عارفا باللغات الشرقية، وكون العديد من العلماء الذين سيظهرون في مجال الدرس اللساني مثل: فون شليغل، الأخوين جريم، فرانس بوب، فون همبولت، وقد أفادوا من دي ساسي في معرفة اللسانيات العربية خاصة مجالي النحو وعلم الأصوات.

وقد ظهرت في هذا العصر تيارات هامة يمكن أن نذكرها كما يلي:

1. المقارنة من أجل معرفة القرابة بين اللغات الهندية الأوروبية (شليغل، بوب، راسك).
2. تشبيه اللغات بالكائنات الحية (فلهالم فون شلايشر).
3. التتبع التاريخي والاهتمام بتعليل التطور (أعمال جريم).

ومن خلال ما تقدم يمكن أن نقول: إنّ الدراسات اللسانية السابقة لفردينان دي سوسير عرفت ثلاث مراحل مهمة يمكن إدراجها هاهنا من حيث كونها مناهج أيضا:[[7]](#footnote-8)\*

1. مرحلة النحو المعياري: وهي عبارة عن دراسة قائمة على المنطق، مما يؤدي إلى النظر إلى اللغة في شكل افتراضات لا نهائية مثل: النحو اليوناني.
2. مرحلة الفيلولوجيا التاريخية: وتتمثل في أعمال المدرسة الإسكندرية، حيث تقوم فيها الدراسة على شرح النصوص القديمة، وتفسيرها معتمدة المنهج التاريخي الباحث في أصل اللغات، نشأتها، تطورها.
3. الدراسات الفيلولوجيا المقارنة: ظهرت باكتشاف الأوروبيين لعلاقات القرابة بين السنسكريتية، واليونانية، واللاتينية، وتهدف إلى المقارنة بين اللغات الهندوأوروبية للوصول إلى اللغة الأم، وقد استقرت مع فرانز بوب.

وكان رأي سوسير في المرحلة الأولى برفضه استعمال المعيار في الحكم على الظاهرة اللسانية، وقد نقد الفيلولوجيا التاريخية لأنها:

* تعدّ اللغة مجرد وسيلة وليست غاية.
* تدرس المكتوب دون المنطوق (دروسها ضيقة النطاق).
* تعتمد المنهج التاريخي.

أما الفيلولوجيا المقارنة فهي –في رأيه-:

* لم تضع لمنهجها غرضا محددا، بحيث إنّها لم تكن تتساءل عن معنى التقارب الذي كانت تبحث عنه، ولم تهتم بأبعاد العلاقات التي كانت تكتشفها.
* حصرت في المقارنة ولم تكن تاريخية.
* تعتمد مبدأ خاطئا (تبحث في الظاهرة الصوتية معزولة عن نظامها النحوي الواردة فيه).

خاتمة:

وما يمكن قوله: إن معظم الأفكار التي تحدث عنها سوسير في كتابه كانت موجودة قبله، خاصة إذا عدنا إلى أعمال كل من وايتني اللساني الأمريكي، أو أعمال فون هومبولت، وكذا أعمال النحاة الجدد، لكن سوسير استطاع تنسيقهاوتقنينها واخراجها كنظرية خلدت اسمه كمؤسس للدرس اللساني الحديث كما يذهب معظم العلماء، وإن كان بعضهم يرفض فكرة التأسيس مثل ميشال أريفيه. لكنه لا ينكر فضله على اللسانيات ومختلف العلوم المرتبطة بها.

1. - ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح. **بحوث ودراسات في علوم اللسان**.ص.92-96 [↑](#footnote-ref-2)
2. - ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح. **بحوث ودراسات في علوم اللسان**.ص.99 وص105 على التوالي. [↑](#footnote-ref-3)
3. - Ferdinand De Saussure. Cours de linguistique générale.p.30. [↑](#footnote-ref-4)
4. \*- وليام جونس كان قاضيا في المحكمة البريطانية في الهند. [↑](#footnote-ref-5)
5. - بريجيته بارتشت. **مناهج علم اللغة من هرمان باول إلىناعوم تشومسكي**. ترجمة: (سعيد حسن بحيري). ص. 39-40 . [↑](#footnote-ref-6)
6. - المرجع نفسه.ص.39. [↑](#footnote-ref-7)
7. \*- ملاحظة: هذه المراحل ذكرها سوسير مقدما نقدا لها في مقدمة كتابه "المحاضرات" [↑](#footnote-ref-8)